التناص القرآني في شعرية مفدي زكريا
(دراسة في بعض النماذج الشعرية)

عجناك (بشي) يمينة : أستاذة محاضرة (أ)
كلية الأدب واللغات- جامعة الجزائر2

مصادر الثقافة التراثية عند مفدي

لعل الإشكالية الجوهرية التي تهدف إليها هذه الدراسة تتمحور حول: ما مدى أثر القرآن الكريم في نصوص مفدي زكريا الشعرية، وكيف تجلى أثر النص القرآني في شعرية مفدي في عناصر كثيرة منها؛ المعاني والقصص القرآني، والصور واللغة القرآنية، وذلك من خلال دراسة بعض النماذج الشعرية التي تعكس هذا الأثر. نشأ مفدي زكريا في بيئة دينية محافظة و تغذى منذ نعومة أظافره بمقومات الأمة العربية والإسلامية وقد حرصت عائلته على تنشئتة تنشئة دينية كعادة كل العائلات في بني يزقن بوادي ميزاب، وقد وجهه والده نحو الكتاب الذي تلقى فيه آيات القرآن الكريم ومبادئ علوم اللغة العربية ثم انتقل به في سن مبكرة إلى عنابة ثم تونس لمواصلة الدراسة والتكوين، وخلال الدراسة والتكوين في كل المراحل أظهر مفدي قدرة فائقة في استيعاب تعاليم الإسلام في لغته وتفكيره وتعامله مع الآخرين. قدم الباحث محمد ناصر في كتابهّ مفدي زكريا شاعر النضال والثورة" وقفات متأنية حول تكوين مفدي الديني في شتى المراحل التي قضاها في التعليم وما أورده الباحث في حديثه عن مدارس وادي ميزاب وارتباطها الوثيق بالعقيدة الإيمانية في ظل الثقافة التي تلقاها الشاعر في مسقط رأسه[1].

تغذى مفدي بهذا الرافد الأساسي في تكوينه الروحي وبالإضافة إلى الشيوخ الذين تلقى على أيديهم هذا التكوين ذي الأبعاد الدينية الخالصة؛ هذا التمسك بالعقيدة الإسلامية كثيرا ما أشار إليه من عرفه عن قرب ومنهم الأستاذ أحمد سعيد المدير الأسبق لإذاعة صوت العرب بالقاهرة، الذي قال عنه" لعل من أبرز ما يميز شعره أنه واحد من الشعراء القلائل أكرمهم الله من خلال حفظهم الجيد لسور وآيات القرآن الكريم واستيعابهم لإعجازه اللغوي وبلاغته الربانية، وتضمينه لمفردات أبياته نصوصا قرآنية في سلاسة جمالية فائقة تبدو كقلائد ثمينة تؤكد وتقدس ما استهدفه من معان و تثري تمسك مفدي بهذه التعاليم التي تلقاها عن هؤلاء الشيوخ جعلت عين الاستعمار الفرنسي تراقبه وتلاحقه وتترصد تحركاته وخطواته المشبعة بالتربية الإسلامية...[2]

المصادر التراثية في شعر مفدي زكريا:

لا مناص لأي شاعر كان، وفي أي عصر كان من أن يرجع ويستعين بتراثه الذي ينتمي إليه، حتى وان تعددت مشاربه الثقافية وإبداعاته الشعرية، فقد يجد نفسه مجبرا في الارتباط بتراثه –في بعض الحالات في زاوية من زواياه المتعددة؛ ولما كان الجيل الذي شهد معه الشعر الجزائري الحديث بداية تطوره الحقيقي قد تخرج في مدارس الحركة الإصلاحية التي بينت لنا مكان القرآن الكريم في برامجها، فإنه من الطبيعي أن تكون لهذا الرافد آثار واضحة فيما ستجود به قرائح الشعراء الذين شبوا واستقام عودهم في هذه المدارس، خصوصاً أن هؤلاء الشعراء فهموا أن وظيفتهم الأولى في المجتمع وظيفة تهذيبية تربوية تهدف إلى النهوض بالأمة ومحاربة البدع والضلالات، التي كان يشجع عليها المستعمر ليبقى الشعب الجزائري يعيش في ظلمات الجهل، منقطع الصلة بالحياة كما هو منصوص عليها في كتاب الله عز وجل..[3]، وضمن هذا المسار نجد أشكال التراث الديني المتنوع بدلالاته المختلفة، وطرق توظيفه عند الشاعر مفدي زكريا. فللوهلة الأولى نكتشف أن شعره والتراث يشكلان ثنائية متلازمة، وهذا من حيث براعة الشاعر في استلهام التراث، منوّعا

باستخدامه ومتعمّقا في دلالاته، فلقد كان بالنسبة إليه هو الينبوع الدائم المتفجر بأصل القيم، والحصن المنيع الذي يلجا إليه كلما عصفت به العواصف، فيمنحه السكينة والأمن.

إن المتتبع لشعر مفدي يكتشف رصيدا دينيا متعددا في دواوينه، حيث أن عملية الإبداع الفني عنده ارتبطت بالروافد الدينية ارتباطا وثيقا، بل وجدت فيه مصبا صالحا لاستعمالها، فالشاعر قد أفاض في هذا المجال باستعمال تقنيات التضمين والاقتباس من التراث الديني عامة والقرآن خاصة، مشكّلا بذلك ما يعرف بالتناص حسب المفهوم النقدي الحديث، فنحس وكأن هناك اتحادا وتزاوجا في الإحكام المتين والاعتماد الواعي فيما يفعله الشاعر في إبداعاته الشعرية بين وضعياته الذاتية وبين اقتباساته، إذ من خلالها تصبح التجربة الشعرية استعادة لمجموعة من النصوص القديمة؛ذلك أن المبدع لا يتم له النضج الحق إلا باستيعاب ما سبقه في مجالات الإبداع المختلفة[4]؛ وقد اعترف الشعراء الجزائريون أنفسهم بفضل القرآن في تكوينهم وبآثره في أشعارهم، وهو أثر تجلى في أكثر من عنصر من عناصر الشعر عند هؤلاء؛ فقد مس المعجم الشعري والصورة بأنماطها المختلفة والإيقاع والمعاني [5].

- المعاني القرآنية في شعر مفدي زكريا:

إن الموضوعات والمعاني القرآنية كثيرة ومتشعبة ويتعذر على الباحث الإحاطة بها جميعا، نكتفي بالإشارة إلى بعضها لا سيما التي اهتم بها الشاعر أكثر من غيرها مستلهما ذلك من نصوص القرآن.

يدخل إنتاج مفدي زكريا الشعري دائرة التناص كاقتباس بشكل كلي، إذ نلحظ تداخل الصياغة القرآنية مع النص الشعري حتى لتكاد تسيطر عليه سيطرة كاملة، بحيث لا تخل قصيدة من قصائده من تلك المضامين الدينية المستمدة من القرآن أو الحديث أو من رموز التراث الديني عامة[6]. وضمن هذا المسار نجد أشكال التراث الديني المتنوع بدلالاته

المختلفة، وطرق توظيفه عند الشاعر مفدي زكريا؛ فللوهلة الأولى نكتشف أن شعره والتراث يشكلان ثنائية متلازمة، وهذا من حيث براعة الشاعر في استلهام التراث، منوعا باستخدامه ومتعمقا في دلالاته، فلقد كان بالنسبة إليه هو الينبوع الدائم المتفجر بأصل القيم وأنصعها وأنقاها، والحصن المنيع الذي يلجأ إليه كلما عصفت به العواصف، فيمنحه السكينة والأمن[7].

وعند تتبعنا لمحتوى دواوين الشاعر،وجدنا رصيدا دينيا متعددا في شعره،حيث أن عملية الإبداع الفني عنده ارتبطت بالروافد الدينية ارتباطا وثيقا.

ويستلهم طائفة من المعاني القرآنية ليحفز النفوس على الاستمساك بالدين والعمل بتعاليمه وتطبيق أحكامه وليحمل الناس على عدم الخوف من أية قوة مهما كانت جبارة، في السياق نفسه يبين مفدي زكريا لإخوانه في فلسطين كيفية استرجاع أرضهم المغتصبة ظلماً وعدواناً، واستعادة حقوقهم المسلوبة، فيربط بين تحقيق هذه الغايات وبين طاعة المولى جلّ جلاله وإخلاص العبادة له وحده، فنصرهم مرهون بنصرته العلي القدير، قائلا:

فإن تنصروا اللّه ينصركم +++ وينجز أمانيكم الغالية

ولن يخلف اللّه ميعاده +++ ولا ريب ساعتنا آتية[8]!

تبدو العلاقة واضحة بين المعاني المصوغة في هذين البيتين وبين قوله تعالى: (حتى يأتي وعد اللّه إن اللّه لا يُخلف الميعاد). (الرعد: 31). وقوله: (وعْدَ اللّه لا يخلف اللّه وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (الروم: 6). وقوله في سورة "محمد":(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللّه ينصركم ويُثبّت أقدامكم (محمد 7 وتكشف الموازنة بين هذه المعاني الشعرية والقرآنية أن الشاعر كاد أن يعيد بعض هذه الآيات بنصها: فالألفاظ هي نفسها مع بعض التصرف الذي اقتضته قواعد النظم في نسج الأبيات، مرة أخرى نجد الشاعر في قصيدته (إلى الريفيين التي نشرها في لسان الشعب ماي سنة 1925) يشد أزر أبناء الريف المغاربة في حربهم ضد الاستعمار الإسباني، فلا يجد في شحذهم بروح البذل والتضحية في

سبيل تحرير أرضهم ودفع الظلم عن أنفسهم أنسب من معنى الرعاية التي يحيط بها الله عباده المؤمنين بعينه التي لا تنام في جهادهم للكفر والطغيان، في قوله:

(بني الريف) لا بل بني الشرق جمعاً ++++ هلمُّوا فقد عَذُب المستقر

ففوقكم عينُ ربٍّ خبيـر ++++ تنامُ العيون ولا تنحسر[9]

لاشك أن مفدي قد استلهم المعاني القرآنية في بيته الثاني في قوله عزّ وجل: "الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.". (البقرة: 255). أما معنى الرعاية والنصر الإلهيين المفهوم من البيت فإن مرجعيته القرآنية جلية واضحة.

وقد عمل الشعراء على تمتين صلة الشعب بربه وتقوية ثقته في نصره على عدوه، من هنا نجد صفات الله وأسماءه الحسنى، التي حفل بها القرآن الكريم، تتردد في كثير من القصائد. نجد هذه الخاصية في النداء الذي رفعه إلى أبناء الريف المغربي يحثهم فيه على ترك الخنوع والتخاذل والنهوض لكسر قيود الذل التي تطوق أعناقهم في قوله:

فإن سامحتكم ضمائركم +++ فإن المهيمن لا يغتفر[10]، كما نجده يستخدم لهذا الغرض بعض هذه الأسماء والصفات في قصيدة: "الإسلام يتكلم "في قوله:

على ذمّة القهّار ما أنا فاعل +++++ إلى مفرق الجوزا إلى السمك العالي[11]

واللافت للنظر أن توظيف الشاعر كلمة (المهيمن) و(القهار) الغرض منه استنهاض الهمم وتحريك النفوس للثورة، فهو بتذكيره مخاطبيه بأن "المهيمن". أي الله عزّ وجل لا يرضى تقاعسهم وقعودهم عن بذل النفوس من أجل الحرية، فإنه يريد أن يوقد الشعور بالذنب والتقصير، وهو معنى سيكون له من غير شك وقع شديد في النفوس التقية المؤمنة التي تعلم حق العلم أن غضب الله ليس بالأمر الهين مصداقاً لقوله :"ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى[12]، و لا نحتاج إلى استعراض أمثلة كثيرة لنبين أن القرآن كان المصدر الأول لهؤلاء الشعراء في المعاني التي أدتها هذه الأسماء والصفات في السياقات التي استخدمت فيها.

فحسبنا في ذلك قوله تعالى في سورة الحشر:] هو اللّه الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو اللّه لا إله إلا هو الملِك ُالقدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر. سبحان اللّه عما يشركون هو اللّه الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يُسبِّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم[13]. ومن النصوص الشعرية المتداخلة مع السياق القرآني والمتضمنة للمعاني القرآنية قصيدته المعنونة " ألا إن ربك أوحى لها !!"قوله:

هو الإثمُ زلزل زلزالها ++ فزُلزلتِ الأرضُ زلزالها
وحمّلها الناسُ أثقالهم ++ فأخرجتِ الأرضُ أثقالها
وقال ابن آدمَ في حُمقه ++ يسائلها ساخرا : مالها؟
فلا تسألوا الأرض عن رجّة ++ تُحاكي الجحيم وأهوالها [14]

ونوع ثان من المعاني القرآنية يستمده الشاعر من النص القرآني لا يقل أهمية عن السابق(هو) ليلة القدروما تحمل من رموز ودلالات أسماها فكرة الخلاص المنتظر،لذا فلا غرابة أن يتكرر توظيفها عند الشاعر إذ أن طبيعة الواقع و الظروف هي التي فرضت ذلك يقول في قصيدته "سنثأر للشعب" سلو مهجة الأقدار هل جرسُها دقا؟ +++ وهل خاطِر الظلماءِ عن سرّها انشقا؟
وهل ليلةُ القدر التي طال عمرُها +++ تنفّس عنها فجرُها يصدعُ الأفقــا؟
وهل كفّ هذا الدهرُ عن غُلُوائه +++ وأنصفنا هذا الزمانُ الذي عقــا[15]؟

إن نماذج اقتباس المضامين والمعاني القرآنية من القرآن كثيرة عند مفدي تكشف عن مدى تفاعل الشاعر مع النص القرآني، واستغلاله لصوره وعباراته، فبقدر انتشار الكثافة التناصية في شعر مفدي زكريا، بقدر ما تعدد الدلالات والسياقات حتى داخل النص الواحد، وهي قوة وبراعة في توظيف آيات القرآن لغة وتصويرا دون أن يكون ذلك تكلّفا وافتعالا بل أصبحت لغة القرآن تُداخِل لغته الشعرية تعبيرا وتصويرا ،مما جعل

هذاالتوظيف طابعا يكاد يتميز به شعر مفدي زكريا ويدل عليه على حد تعبير الباحث محمد ناصر[16].

-أثر الصور القرآنية في شعر مفدي زكريا:

نجد اهتمام الشعراء بهذه الظاهرة "التناص مع القرآن" لأن القرآن يضفي على الصورة الشعرية طابعا من الحيوية والأصالة، أما عن علاقة شعر مفدي زكرياء بالقرآن نجد أن هذا الشاعر قد أولاه اهتماما كبيرا، فوظف تعابيره في نصوصه الشعرية حيث "كلما يريد التعبير عن قدسية شيء ما أو عظمته في نفسه قارنه بالقرآن، إحساسا منه أن القرآن يمثل في نفسه نهاية السمو الذي لا نهاية بعده[17]". إذا تأملنا شعر مفدي زكريا نجد أنه قد أكثر في توظيف هذا النوع التناصي، حيث يستقي مادته الفنية من الصور القرآنية "فيجد الشاعر بين الصورة التي يريد رسمها والصورة الموجودة في القرآن الكريم تشابها في الدلالة الفكرية أو الفنية، ولكنه مع ذلك لا يوردها بنصها الحرفي وبصيغتها التعبيرية الواردة بها في الأصل القرآني، وإنما يشير إليها من خلال أبياته إشارات فنية يستطيع المتلقي إدراكها اعتمادا على الذوق والمعرفة"[18]. هكذا أصبح التفاعل بين النص القرآني وشعر مفدي زكريا قد حقق مفعوله.

سوف نحاول استدعاء بعض الصور القرآنية التي وظفها الشاعر في نصوصه لإيصال المعاني والدلالات للمتلقي حيث يظهر استحضاره للآية القرآنية في قصيدته "الذبيح الصاعد " عندما تحدث عن الموت على أنه قضاء وقدر فيقول:

"واقض يا موت فيّ ما أنت قاض +++ أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا"[19]

استحضر الشاعر في هذه الأبيات آية قرآنية قال تعالى: "قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا "[20].

يواصل الشاعر اقتباسه من الآيات القرآنية واصفا شموخ أحمد زبانا و هو بين جلاديه قائلا:

زعموا قتله... وما صلبوه +++ ليس في الخالدين، عيسى الوحيدا[21]!

إن تشبيه و تصوير "أحمد زبانا" بمثابة سيدنا "عيسى عليه السلام" مقتبس من الاية القرآنية: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا "[22]. حاول الشاعر إسقاط هذه الحادثة على العدو الفرنسي الذي اعتقد أنه قتل"أحمد زبانا" لكنه في الحقيقة ذكره خالد لم يمت فذكراه لا تزال حية في الأذهان واستخدم الشاعر أفعال ماضية (زعموا، صلبوه) ليشير إلى مدى التناسق الموجود بين البيت الشعري والآية القرآنية التي وظفها، وبذلك تحقق التناص الاقتباسي في هذا البيت الشعري بصورة رائعة. ويتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الثورة التحريرية والأوضاع التي عاشها الجزائريون في هذه الفترة فيقول:

تنزل روحها، من كل أمر ... +++ بأحرار الجزائر، قد أهابا [23]

استحضر الشاعر قوله تعالى:" تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سلام هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ" [24]جعل الشاعر"القرآن" العنصر الذي يرتكز عليه شعره ففي كل مرة يقتبس آية قرآنية تخدم غايته الشعرية وتكسب نصه معنى جديدا متجددا. يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن الثروة الموجودة في الصحراء قائلا:

"وهزت مريم العذرا نخيلا +++ فأسقطتِ الفلوذج والرضابا

عراجنُ، كالمجرّة مشرقاتُ +++ عسالِجُها، انسكبن بها انسكابا"[25]

في هذا التناص الاقتباسي مع قوله تعالى: "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا[26]. يدعو الشاعر الشعب الجزائري للدفاع عن الوطن بكل الطرق الممكنة حتى وإن افتدوا بأرواحهم، فالاستشهاد في سبيل الله هو الغاية لتحقيق أمنية الإنسان وهي دخول الجنة فيقول:

"من يشتري الخلد؟ إن الله بائعه +++ فاستبشروا وأسرعوا، فالبيع محدودا[27]

" قتبس هذا البيت الشعري من هذه الآية"القرآنية:

" إِن اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[28]، وما نلاحظه في البيت الشعري هو ظهور اقتباس حرفي للآية القرآنية حيث اتخذ الشاعر ألفاظ ومعاني الآية ليضفي على نصه دلالة جديدة إلا أنها متشابكة ومترابطة مع الدلالة القرآنية. كما صور الشاعر ليلة اندلاع الثورة التحريرية مرة ثانية ليؤكد على هول وخراب البلاد ومعاناة الشعب قائلا:

هو الإثم، زلزل زلزالها ++++ فزلزلت الأرض، زلزالها
وحملها الناس أثقالها ++++ فأخرجت الأرض أثقالها
وقال ابن أدم في حمقه ++++ يسائلها ساخرا، مالها؟؟
ألا إن إبليس أوحى لكم ++++ ألا إن ربك، أوحى لها![29]

لقد صور الشاعر الأوضاع المزرية الذي مست "الأصنام" مدينة "الشلف" حاليا فأشار إلى سورة الزلزلة التي كانت أكثر تعبيرا عن هذا الوضع المزري قال تعالى: "إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنسَانُ مَالَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا"[30].

لقد حافظ مفدي زكريا على بنية النص الأصلي حيث تطابق أسلوب نصه الشعري مع النص القرآني مع الإبداع على مستوى تشكيل معنى النص هو: الإثم زلزل زلزالها، حملها الناس أثقالها، وهنا تظهر جماليات التناص الاقتباسي.

إن التناص بين النص الشعري، والسور القرآنية لم يحدث على مستوى اللفظ والمعنى أو الصورة الفنية، وإنما كذلك على مستوى الإيقاع الشعري إذ تستحيل الفاصلة القرآنية لسورة الزلزلة قافية شعرية، وهذا الشكل من التناص نجده في العديد من النماذج الشعرية وهو يكشف عن تمكن النص القرآني في نفسية الشاعر وتقديسه له وقدرته على تمثله من خلال الإيقاع الشعري.

أثر القصص القرآني في شعر مفدي زكريا :

استدعى الشاعر مجموعة من الآيات القرآنية التي تجلي أثر القصص القرآني في شعره منها قصيدته" فلا عز...حتى تستقل الجزائر" هذا ما يبين تأثره بالمدرسة القرآنية:

ورثنا عصا موسى، فجدّد صنعها ++ حِجانا، فراحت تلقفُ النار لا السحرا
وكلّم موسى اللّهُ في(الطور) خِفية ++ وفي(الأطلس الجبار) كلّمنا جهرا
وانطق عيسى الإنس، بعد وفاتهم +++ فألهمنا -في الحرب-أن نُنطق الصخرا
وكانت لإبراهيم بردا ، جهنـمُ +++ فعلّمنا- في الخطب- أن نمضغ الجمرا"[31]

في البيت الأول يبدو الأثر الواضح للآية الكريمة: قال تعالى:" وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[32]، أما البيت الثاني فقد أشار إلى المعجزة التي حدثت لسيدنا موسى قال تعالى:"وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ من قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا"[33]، أما البيت الثالث فتحدث عن معجزة سيدنا عيسى قال تعالى:" وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[34].

اقتبس الشاعر في البيت الرابع الآية القرآنية التي تتحدث عن حادثة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الكفار قال تعالى:قلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ [35]. في هذه الآيات الأربعة إشارة إلى قصص الأنبياء والأحداث التي تعرضوا لها، حيث استعاد الشاعر في مخيلته قصص هؤلاء الأنبياء و المعجزات التي حدثت لهم جميعا.

لقد اهتم الشاعر بقصص الأنبياء خاصة ما تعلق بحوادث سيدنا موسى مع آل فرعون حيث نجده يستحضر في كل مرة مشهدا من هذه الحوادث قائلا:

وحـــداد في السوق ألقى عصاه +++ أعلنها في الذرى والبطاح

كمثل عصاي..سألقي الفرنس ++++ يس في البحر، أركلهم بالرماح[36].

تحدث الشاعر مفدي زكريا في هذين البيتين عن جرأة وشجاعة الشيخ الحداد عندما ألقى عصاه في السوق وسط الجمهور وذلك ليقنع للشعب الجزائري على عدم الاستسلام، ويصرح بقوله: "سنرمي الفرنسيين إلى البحر كما رميت هذه العصا على الأرض" [37] فالعبارة التي إستخدمها الشاعر "ألقى عصاه" مستوحاة من قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَه فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [38]".

فلا يكمن اكتشاف معنى هذه الأبيات الشعرية لو لم نعرف قصة سيدنا موسى عليه السلام، إذ أبدع الشاعر في تصوير مشهد كيفية إلقاء عصا الشيخ الحداد، فهنا قد قلب دلالة النص القرآني ليعطي نصه دلالة جديدة لكن الألفاظ مستوحاة من النص السابق.

لقد أثرت قصة سيدنا موسى في نفسية مفدي زكريا، إذ ذكر واستوحى مواقف عديدة وهذا ليبين مكانة قصص الأنبياء في التاريخ الإسلامي فيقول:

وشبت من ذرى(وهران) نار ++++ رآها(برج مدين) فاستجابا [39]

يستعين مفدي زكريا مرة أخرى بقصة سيدنا موسى عليه السلام لكنه هذه المرة يستدعي حادثة أخرى لم يسبق لها الذكر فوظف الآية القرآنية التي تشير إلى معنى ذلك البيت الشعري، قال تعالى: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى".[40]

استطاع الشاعر بخياله الواسع أن يصور مشهدا قرآنيا دون أن يحيل إلى تركيب أو ملفوظ وهذا ما أضفى على شعره دلالة قوية أكسبته رونقا وجمالية، في تصوير المشاهد وإبداعه في تقديم الصور الجديدة.

إن شخصيات الأنبياء كمورث ديني استحضره الشاعر في قصائده،قصد ربطه بدلالات أساسية لا تخرج عن نطاق فكرة الصراع والثورة وقصد الكشف عن حقائق ووقائع طالما استترت برداء زائف فرأى الشاعر تعريتها وكشف وجهها الحقيقي بطريقة تلميحية رمزية بعيدا عن المباشرة والتقريرية[41].

ودون الغوص في النماذج الأخرى المستمدة من التراث كشخصيات القادة والفاتحين التي كان الدين سببا في بروزها وخلودها أو أنواع المواقف التاريخية المرتبطة بالتراث الديني كبعض المعارك الشهيرة أو حتى الأماكن التي تكرر ذكرها كنوع من الاستعانة والاستمداد من التراث.

خاتمة:

نخلص في الأخير إلى بعض النتائج المترتبة عن أثر النص القرآني والتراثي في شعرية مفدي التي نلخصها فيما يلي:

_إن عملية استحضاره للتراث تمت بطريقة انتقائية ومركزة تخضع في ذلك لطبيعة الأفكار والمواقف التي أرادها الشاعر، كما أن طريقة توظيفه لهذا التراث اعتمد فيها على الترميز والتلميح بعيدا عن الغموض المتعارف عليه في الشعر العربي المعاصر.

_ جاء التوظيف للنص القرآني في أغلبه في شكل اقتباس أو تضمين واستشهاد أخذ بذلك طابع التناص الذي اصطلح عليه في الدراسات النقدية المعاصرة.

-إن نوعية التراث المستعمل معظمه ديني وهذا يعود لأصالة الشاعر وتكوينه الخاص تجاوبا مع ثقافة المتلقي.

-لا نجد في شعر مفدي ظاهرة التناص فحسب أثناء توظيفه للتراث الديني، بل تعداه إلى استخدام الصورة الفنية المؤثرة.

-تم انزياح الشاعر للتراث الديني على وجه الخصوص بماله من خلفيات وترسبات داخل الذاكرة العربية، ولإثارة ذلك لجأ إلى المجاز بدل الحقيقية فمفدي كان أكثر صدقا وفاعلية في تعامله مع التراث العربي والإسلامي وهذا يعود لصدقه مع ذاته.

-إن الشاعر استطاع ببراعة تامة تضمين شعره الموروث الديني،ليجعله متناسبا والمعنى المراد تبليغه للمتلقي، وصولا للهدف المنشود وهو تفعيل الحس الثوري.

- استحضار السياقات القرآنية الكثيرة في نصوصه الشعرية من ذلك استعمال المفردات: تبارك، ليلة قدر، ألف شهر، القصاص، ذو الجلال، مطلع فجر، .... وهذا يدل دلالة واضحة على رسوخ المنزع الديني لدى الشاعر، وتبيين أثر النسج القرآني في أشعار الجهاد، والمقاومة.

-الشعري والمعجم الديني يعززه وجود أسماء الأنبياء والمرسلين مثل محمد، عيسى، موسى، مريم... هذه الأسماء في تمظهرها لا تتخذ أنماطا معقدة، وإنما تأتي في شكل إحالة" إذ تحيل هذه الأسماء إلى مرجعيتها التراثية أو التاريخية وعند توظيفها في سياق النص الجديد فإنها لا تأتي فارغة من المعنى، وإنما لها معاني و دلالات رمزية مكثفة .

-إن التناص بين النص الشعري، والسور القرآنية، لم يحدث على مستوى اللفظ والمعنى أو الصورة الفنية فحسب، وإنما كذلك على مستوى الإيقاع الشعري إذ تستحيل الفاصلة القرآنية لسورة الزلزلة مثلا قافية شعرية، وهذا الشكل من التناص نجده في العديد من النماذج الشعرية وهو يكشف عن تمكن النص

القرآني في نفسية الشاعر وتقديسه له وقدرته على تمثله من خلال الإيقاع الشعري.

خلاصة القول: إنّ مفدي زكريا استفاد استفادة عظمى من القرآن الكريم، حتى أننا لا نكاد نجد قصيدة واحدة لم تتأثر بالمعنى واللفظ القرآني، فأثر القرآن الكريم ظاهر جلي في شعره، وأن هذا التأثر شمل المعاني و الألفاظ بصفة لافتة للنظر، ولعل براعة التوظيف لهما هو الذي أضفى على شعرية مفدي جمالية و خصوصية في الأسلوب و البناء الشعري.

الهوامش:

1- د. محمد ناصر :شاعر النضال والثورة، المطبعة العربية غرداية 1984، ص70.

2- ينظر: أم سهام (عمارية بلال) تعاليم الإسلام في شعر مفدي زكريا، موقع: أصوات الشمال2013 -08-06.

3- ينظر: عبد القادر هني، المعاني القرآنية، موقع منتديات تخاطب ta5atub.com 2228/11/2012 فبراير 2011 - 7:01

4- ينظر أ .حجاب عبد اللطيف، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكريا، مجلة الأثر جامعة قاصدي مرباح – ورقلة –العدد السابع – ماي2000 – ص 53.

5-ينظر: عبد القادرهني، المعاني القرآنية منتديات تخاطب 28/11/2012 ta5atub.com 22 فبراير 2011 - 7:01

6 -ينظر: أ .حجاب عبد اللطيف، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكرياء، ص 54و ما بعدها.

7 - ينظر: ينظر: أ .حجاب عبد اللطيف، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكرياء، ص 53 و ما بعدها

8- مفدي زكريا، اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط 2، 1991، ص349.

9. د. محمد ناصر: شاعر النضال و الثورة، المطبعة العربية غرداية 1984، ص 133.

10 ـ المرجع نفسه.

11. المرجع نفسه.

12- طه: آية81 .

13 - الحشر: آية 22. 24

14 ـ مفدي زكريا، اللهب المقدس، 273.

15 ـ المصدر نفسه، ص 198.

16 ـ ينظر: محمد ناصر: شاعر النضال و الثورة، ص.70 و ما بعدها.

17-محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر الثورة، ص 107.

18-محمد ناصر: مفدي زكرياء، ص117.

19 -مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 10.

20-سورة طه: أية 72.

21-مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص11.

22 -سورة النساء: أية 157.

23 -مفدي زكرياء: 31.

24 -سورة القدر: أية 4/ 5.

25- مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 37.

26-سورة مريم: آية 25 .

27-مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 130.

28-سورة التوبة: أية 111.

29 -مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص89.

30-سورة الزلزلة: أية 1، 5.

31-مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 306.

32 -سورة الأعراف: أية 117، 118.

33-سورة النساء: أية 164.

34-سورة أل عمران: أية 49.

35-سورة الأنبياء: أية 69.

36 -مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، ص 59.

37 -مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر، ص59.

38 -سورة الأعراف: 107-108.

39 -مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص 32.

40-سورة طه: 9-13.

41 -ينظر: أ .حجاب عبد اللطيف، تقنية توظيف التراث الديني في شعر مفدي زكرياء، ص59.